محاضرات أدب العصور المتأخرة

المرحلة الثالثة

المحاضرة الأولى

خصائص الموضوعات التقليدية للشعر

استمر الشعراء في العصر الوسيط في طرق الموضوعات الشعرية التقليدية كالمديح والرثاء والغزل والوصف والهجاء والخمريات، وتطورت وازدهرت موضوعات شعرية اخرى كانت موجودة سابقا لدى الشعراء كالمدائح النبوية والاخوانيات والزهد والتصوف والشعر التعليمي وشعر الحرب.

١ – المديح :

هو ابرز موضوعات الشعر، وفيه نوعان الأول : مديح صادق ينبع من النفس، بعيدا عن الخضوع للممدوح وهو قليل، الأخر: مديح كاذب يصدر من طرف اللسان، فيه مبالغة وتذلل وسؤال وهو كثير، والغالب في قصائد المديح الشكل التقليدي، فهي تستهل بالغزل أو طيف الخيال، او وصف الخمرة ، او الطبيعة، او الشيب وبكاء الشباب، او تستهل بالحكمة، والشكوى من الحياة، ويلاحظ في المقدمة الغزلية برود العاطفة لأنها لاتنم عن حب صادق، وربما جاءت هذه المقدمة بشيء من اللطافة والعذوبة بسبب تمكن الشاعر من اللغة .

ومن ذلك مقدمة قصيدة مدحية لابن ابي اصيبعة يمدح فيها الوزير أمين الدولة أبا الحسن بن غزال :

فؤادي في محبتهم أسيـــر وأنى سار ركبهمُ أسيـــرُ

يحنُّ الى العُذيب وساكنيه حنيناً قد تضمنه سعيـــر

ويهوى نسمة هبت سُحيراً بها من طيب نشرهم عبير

وإني قانع بعد التـــداني بطيف من خيالهـــم يزور

واستمر الشاعر بعد ذلك في الغزل والوصف حتى تخلص الى المديح بعبارات الاطراء والثناء المبالغ فيها وهذا هو المتبع غالبا عند الشعراء :

وإن أشك الزمـــانَ فإن ذخري أمينُ الدولـــة المولى الوزيرُ

كريمٌ أريحـــــــيٌ ذو أيادٍ تعمُّ كما همى الجونُ المطير

تسامى في سماء المجد حتى تأثر تحت أخمصـــهِ الأثير

له أمرٌ وعدلٌ مستمـــــــرٌ به في الخلق تعتدل الأمـــور

وكانت المبالغة المفرطة هي ديدن مدائح العصر الوسيط فالشاعر صفي الدين الحلي مثلاً يظهر الممدوح – وهو أحد سلاطين المماليك – في صورة خيالية فريدة بقوله :

ترجى مواهبه ويرهب بطشـــه مثل الزمان مسالما ومحـــــاربا

فإذا سطا ملأ القلوب مهابـــة وإذا سخا ملأ العيـــــون مواهبا

كالليث يحمي غابه بزئيـــره طورا، وينشب في القنيص مخالبا

كالسيف يبدي للنواظر منظرا طلقا، ويمضي في الهياج مضاربا

وكانت المبالغة في شعر هذا العصر تزداد كلما كانت العطايا أكثر، وكثيرا ماكان الشعراء يلمحون او يصرحون بطلب العطاء ويصل بهم الحد الى الاستجداء، وكانت المدائح تدور حول السخاء والاريحية والشجاعة ونبل الاصل والسطوة والنبوغ وغيرها، وكانت قائمة الممدوحين تشمل السلاطين والوزراء والنواب والقادة والعلماء والكُتاب وغيرهم، وربما كانت المدائح على شكل موشحات كموشحة شهاب الدين التلعفري في مدح صديقه شهاب الدين العزازي وهي موشحة طريفة صادقة صادرة من القلب :

ليس يروي ما بقلبي من ظما غير برق لائـــــح من إضم

إن تبدى لك بان الأجـــــرع

وأثيـــــــلات النقا من لعلع

ياخليلي قف على الدار معي

وتأمل كم بها من مصـــــرع

واحترز واحذر فأحداق الدمى كم أراقت في رباها من دم

حظ قلبي في الغرام الوله

فعذولي فيه ما لي ولــه

حسبي الليل فما أطولــه

لم يزل آخره أولـــــــــه

٢- الرثاء :

هو غرض يعبر عن حزن الانسان وتأسفه على فقد الأحبة، وقد أكثر الشعراء النظم فيه ولكنه في هذا العصر لم يرتق لمراثي الشعراء المتقدمين، فليس فيه عمق أو أحاسيس صادقة وليس فيه تطرق لفلسفة الحياة والموت، وقد شملت المراثي رثاء الأصحاب والأحباب والعلماء، وكذلك رثاء المدن والدول البائدة التي نكبت بالغزو والتدمير، ومن ذلك بغداد التي أسقطها المغول وعاثوا فيها فساداً وقتلاً وتخريباً، فقد رثاها شعراء كثر رثاء حاراً، ومنهم شمس الدين الواعظ الكوفي الذي رثاها بقصائد عدة ذكر فيها اصحابه الذين أبيدوا وتمنى فيها الموت:

إن لم تقرح أدمعـــــي اجفاني من بعد بعدهم فما أجفاني

إنسانُ عيني مُذ تناءت داركُم ما راقه نظرٌ الى إنســـــانِ

يا ليتني قدمتُ قبل فِراقكـــــم ولساعة التوديع لا أحياني

ما لي وللأيام شتـــت صرفها حالي، وخَلاَّني بلا خِـــلان

ولم تكن بغداد المدينة الوحيدة التي رثاها الشعراء في هذا العصر بل شاركتها مدن في بلاد الشام والمغرب والاندلس، ومن ذلك ماقاله الشاعر المغربي الشريف المفضل أفيلال راثيا مدينته تطوان بعد غزو الفرنسيين سنة ١٢٧٦هـ :

يادهر قل لي : علامهْ كسرت جمع السلامه؟

خفَّضْتَ قَدر مَقَـــــامٍ للرفع كـــــان علامه

ملكتـــــــــــه لعداة ليست تساوي قلامـه

فالدين يبكي بدمـــــع يحكيه صوب الغمامه

على مساجد أضحت تباع فيها المدامـــــه

تطوان ما كنــت إلا بين البلاد حمامـــه

وقد كثرت في هذا العصر مراثي العلماء والادباء والحُكام، ورثاء الابناء والزوجات والإخوان وصولا الى الحيوان، ويحتل رثاء العلماء والبكاء عليهم وتعداد مناقبهم وامتداح آثارهم العلمية جانبا كبيراً من مراثي هذا العصر، وهذا دليل اهتمام الناس بالعلم وأهله، فمن ذلك مرثية ابن نباتة المصري حاكم حماة المؤرخ والأديب والفقيه الكبير عماد الدين أبي الفداء الأيوبي والتي ختمها بالحكمة ذاكرا النبي أيوب وصبره الجميل :

ياآل أيوب صبـــــــراً : إن أرثكم من اسم أيوب صبر كان ينجيهِ

هي المنايا على الاقـــــوام دائرةٌ كُلٌ سيأتيه منها دورُ ســـــاقيه

هي المقاديرُ هذا الأصلُ تنزعـــهُ بعد النمو وهذا الفـــــرعُ تُنميه

لا تخشَ بيتكَ أن يلوي الزمانُ به فإن للبيت رباً سُـــــوف يحميه

المحاضرة الثانية

تكملة الاغراض التقليدية للشعر

٣- الغزل : كثر هذا الفن لدى شعراء هذا العصر ولكن أغلبه دون تجربة حقيقية وإنما جاء مجاراة لروح العصر، فشاعر مثل ابن الوردي ينظم مئة مقطوعه في الغزل بالمذكر، ثم ينظم

مئة مقطوعة غزل في مئة جارية ويسميها (الكواكب السارية في مئة جارية) وكل ذلك مجاراة لروح العصر، ومنها قوله في جارية اسمها مي :

قلت لمي أنا في حبكـــم ميت فدتك النفس من مي

ترين ماذا فيَّ، قالت أرى أن (يخرج الميت من الحي)

وهو غزل بارد مصنوع لاروح فيه، ولاعاطفة صادقة ولايجذب المتلقي، وقد تمكن شعراء العصر من نظم هكذا اشعار ومنها مثلا قول الشيخ قطب الدين محمد بن احمد النهرواني:

أقبل كالغصن حين يهـــتزُ في حُلل دون لطفها الخزُ

مهفهف القَـــد ذو محيا بعارض الخد قد تطـــرز

دار بخديه واوُ صـــــدغ والصاد من لحظه تلـــوز

الخمر والجمر من لُمـــاه وخده واضـــــــح وملغز

والغريب ان يعارض بعضهم هذه القصيدة كالشاعر محمد بن ابراهيم المعروف بابن الحنبلي، وقد بالغ فيها وتكلف كثيرا ثم جاء شاعر ثالث ليعارض القصيدة نفسها هو نجم الدين الغزي، ونجد ان القصائد الثلاث نظمت للانشاد والغناء دون عاطفة وشعور صادق .

ويبدو ان التغزل بالمذكر يعود لاحتجاب النساء في البيوت وعدم السماح لهن بالخروج ومخالطة الرجال حفظا لسمعتها، ماجعل الشعراء يتحولون للغزل بالمذكر، وكان اكثر الشعراء يتغزلون بالمذكر ويريدون المؤنث، فجاء وصف محاسن الغلمان مشابها لوصف محاسن النساء، فقد وصفوا العيون والخصور والهيام والوجد والتتيم، ولكن شعراء هذا العصر لم يصلوا الى حد الابتذال الذي وصل اليه الشعراء العباسيون كأبي نواس وكشاجم وابن حجاج وابن سكرة وغيرهم.

وقد التفت شعراء العصر الى غزل العصر العباسي لمعارضته والاعتماد على اخيلته وصوره وقوافيه فمن ذلك معارضة قصيدة الشريف الرضي المعروفة :

ياظبية البان ترعى في خمائله ليهنك اليوم ان القلب مرعاك

فقد عارضها مخلص الدين ابراهيم بن محمد الخزاعي بقوله :

ياجنة الطرف نار القلب مـــــأواك وماتوقدها من برد ذكـــــراك

ويامهاة الدُمى كل الدماء لكـــــم حِلٌ، فمن بحرام الفتك أفتـــاكِ

حاشاك ياظبية البان التي افترست أسد العرين من التأثيم حاشاك

وشاعت في فن الغزل (المخمسات) معتمدة على قصائد الشعراء الاقدمين، فمن ذلك تخميس جلال الدين محمد بن عمر لقصيدة الشاب الظريف :

غبتم فطرفي من الأجفان ماغمضا ولم أجد عنكم في الهوى عوضا

فيا عذولا بفرط اللـــــــوم قد نهضا (للعاشقين بأحكـــــام الغرام رضا

فلا تكن يافتى بالعـــــــذل معترضا)

وكذلك استخدم الشعراء (الموشحات) في الغزل وقد اجاد الشعراء المشارقة فيه كحال المغاربة، وسنخصص مبحثا للموشح في دراستنا للفنون الشعرية المستحدثة .

وما يلفت الانتباه هو كثرة ذكر البقاع الحجازية في شعر الغزل في هذا العصر، اقتداء بشعراء عباسيين كبار كالشريف الرضي والابيوردي،ومن ذلك مثلا قصيدة الفقيه محب الدين احمد بن عبد الله الطبري :

لاتلم ياخلي قلبـــــــــي فيهمُ ما على من هوى الملاح جناحُ

ويح قلبي وويح طرفي الى كم يكتمُ الحبُ، والهوى فضَّـــــاحُ

صاحِ عرِّج على العقيق وسلع وقبابٌ فيها الوجوهُ المـــــــلاحُ

٤-**الوصف** : هو احد الاغراض الرئيسة للشعر، وكثيرا مايرد في قصائد المدح والرثاء والغزل والهجاء، وربما استقل بنفسه في قصائد خالصة، وقد وصف الشعراء الدور والقصور والمدن والقرى بما فيها من بساتين وثمار وطيور وانهار، ووصفوا السماء والكواكب والامطار وغيرها .

وقد كثر في هذا العصر وصف الطبيعة الصامتة كالبحيرات والازهار والمنتزهات، ويعد الشاعر مجير الدين بن تميم اكثر الشعراء وصفا للطبيعة ويمكن ان نسمي قصائده في الطبيعة باسم (الزهريات) وقد مزج الغزل بوصف الطبيعة في قوله :

كيف السبيل للثم من أحببتـه في روضة للزهر فيها معرك

مابين منثور وناظر نرجـس مع اقحوان وصفه لايـــدرك

هذا يشير بإصبع وعيون ذا ترنو اليه وثغر هذا يضحـك

واشتهر ايضا بوصف الجداول والبرك والنافورات ودواليب الماء ومن ذلك قوله :

تأمل الى الدولابِ والنهرِ إذ جـرى ودمعهما بين الرياضِ غزيـــرُ

كأن نسيم الروض قد ضاع منهما فأصبح ذا يجري وذاك يـــدور

ومن شعراء الطبيعة المشهورين في هذا العصر الامير منجك بن محمد بن منجك وقد عاش متنعما وشغف بوصف الطبيعة وفيها يقول:

ومنتزه يروق الطـــرف حُسنا لما فيه من المرأى البديـعِ

تجول كتائب الأزهـــار فيه وقد كُسيت حُلى الغيث المريعِ

وبات الورد فيه وهو شاكي السـ ـلاح يميدُ في الدرعِ المنيـعِ

ووصف الشعراء ايضا بعض المدن المشتهرة بجمال الطبيعة ودعوا الناس الى التمتع بجمال مناظرها وطيب هوائها والوان ازهارها وبهاء عمرانها وانواع طيورها، فقد نظمت الشاعرة عائشة الباعونية ابياتا في دمشق تقول فيها :

نزه الطرف في دمشق ففيها كل ما تشتهي وماتختـــار

هي في الأرض جنـة فتأمل كيف تجري من تحتها الأنهار

كم سما في ربوعها كل قصر أشرقت من وجوهها الأقمـــار

وتناغيك بينها صادحـــــات خرست عند نطقها الأوتـــار

وقد شاع في هذا العصر وصف القهوة، وقد اختلف الشعراء بين مادح لها وذام، فمن الشعراء الذين امتدحوها الشاعر ابراهيم بن المبلط :

ياعائبا لشراب قهوتنا التـــي تشفي شفاء النفس من امراضها

او ماتراها وهي في فنجانها تحكي سواد العين وسط بياضها؟

وشاع ايضا وصف اشياء غريبة ومستحدثة ليس فيها من العاطفة شيء، كوصف شهاب الدين الخيمي لسبحة سوداء :

وسبحةُ ســوداء، لونها يحكي سواد القلب والناظرِ

كأنني عند اشتغالي بها أعدُّ أيامك ياهاجـــــــري

وقد تطرق الشعراء الى موضوعات كثيرة في الوصف، بعضها جدي وبعضها هزلي، وبالغوا احيانا في الوصف فقد وصفوا مثلا مافي منازلهم من حشرات وقوارض، يقصدون في ذلك وصف فقرهم وهوان حياتهم فقد نظم كمال الدين بن المبارك الشهير بابن الاعمى وكان فقيرا معدماً قصيدة طويلة يصف فيها الحشرات في بيته ومنها :

دارٌ سكنتُ بها أقلُّ صفاتِهـــــــا أن تكثر الحسراتُ من حشراتـــها

الخيـــــــــر عنها نازحٌ متبـــاعدٌ والشر دانٍ اليها من جميع جهاتها

من بعض مافيها البعوضُ عدمتهُ كم أعدم الأجفان طيب سناتـــــها

وتبيت تسعدها البراغيـــــثُ متى غنت لها رقصـــت على نغماتـــها

وقد بالغ الشاعر كثيرا في وصف فقره وحياته السوداوية والحشرات الغريبة المؤذية في بيته وذلك ليستدر عطف الناس متأثرا بشعراء الكدية في القرن الرابع الهجري •

المحاضرة الثالثة

الموضوعات الشعرية المتطورة

حاول الكثير من شعراء العصر الوسيط تجاوز الموضوعات التقليدية السائدة، وتطوير الشعر تماشيا مع ظروف العصر، فنظموا في موضوعات نشأت اغلبها في العصر العباسي ولكنهم طوروا هذه الموضوعات وزادوا من النظم فيها وهي المدائح النبوية والاخوانيات والزهد والتصوف والشعر التعليمي وشعر الحرب .

١- المدائح النبوية :

ازداد اهتمام الشعراء بمدح الرسول (ص) بعد غزو المغول والحملات الصليبية لديار المسلمين وكثرة الويلات والالام التي أصابت الناس، فقد توسل الشعراء بالرسول الكريم وتشفعوا به كي يدخلوا الجنة وأن تزول همومهم ويعود الامن الى ديارهم، وقد وضع الكثير من الشعراء كتبا ودواوين كاملة في المديح النبوي، وقد بدأ ذلك في العصر العباسي على يد الحافظ ابو الخطاب ابن دحية الكلبي (٦٣٠هـ)الذي وضع كتاب (التنوير في مولد السراج المنير) سنة ٦٢٥هـ، ونجد في هذا العصر دواوين كثيرة في المدح النبوي منها :

١- ديوان (أهنى المنائح في أسنى المدائح) لشهاب الدين محمود الحلبي (٧٢٥هـ) .
٢- ديوان (بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب) لابن سيد الناس اليعمري (٧٣٤هـ) .
٣- ديوان (نظم الدرر في مدح سيد البشر) لمحمد بن عبد الله بن أبي بكر العطار .
٤- ديوان (منتخب الهدية في مدح سيد البرية) لابن نباتة المصري (٧٦٨هـ) .

غير أن أفضل شعراء المدح النبوي وأغزرهم هو جمال الدين يحيى بن يوسف الصرصري الذي قتله المغول سنة ٦٥٦هـ ويسمى شاعر رسول الله وقد انتشرت

مدائحه بين الناس في كل مكان، وقد نظم قصيدة قبل دخول التتار لبغداد يدعو فيها الله ان ينجي المسلمين من شرهم:

اشكو اليك وأنت تعلم فتنـــــــةً كادت لها الصُم الصِلاب تصـــدعُ

فبمن أعزكَ واصطفاكَ فاجزلَ الـ ـنُعمى عليكَ فحوضُ فضلكَ مُترَع

سل جبر امتك الكسيـــــرة إنه لم يبق في قوس التجلـــــد منزع

وعادة ماتبدأ المدائح النبوية بمقدمة غزلية تتضمن وصف محاسن المرأة ومعاناة المحب من السهر والقلق والاشتياق، وكان ابرز مانظم على هذه الشاكلة القصائد التي عارضت بردة كعب بن زهير المشهورة التي كانت منارا يهتدي اليه الشعراء في العصرين العباسي والوسيط، فقد عارضها (٢١) شاعرا وشرحها وعلق عليها (٩) ادباء، فمن الشعراء الذين عارضوها شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري (٦٩٦هـ) واحمد بن عبد الملك العزازي (٧١٠هـ) وابو حيان الاندلسي (٧٤٥هـ)، وابن نباتة المصري والفيروز ابادي (٨١٧هـ) وابن حجة الحموي (٨٣٧هـ) وغيرهم، وقد شرحت بردة كعب وخمست وشطرت تبركا بمن انشدت فيه، وكانت اغلب المعارضات قريبة المآخذ سهلة المعاني ومنها مثلا بردة البوصيري المسماة (ذخر المعاد في وزن بانت سعاد) ومطلعها :

الى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ماقدمت مسؤول

ومنها :

والمصطفى خير خلق الله كلهم له على الرسل ترجيح وتفضيلُ

محمد حجة الله التي ظهـــرت بسُنة مالها في الخلق تـــحويل

نجلُ الاكارم والقـــوم الذين لهم على جميع الأن الطول والطــول

من كمّل الله معناهُ وصورتـــهُ فلم يفته على الحالين تكميـــــل

وخصهُ بوقـــــــارٍ قرَّ منه له في أنفسِ الناسِ تعظيمٌ وتبجيـل

وهي قصيدة طويلة بينت مكارم النبي وأوصافه، وقد استقبل الناس هذه القصيدة وغيرها بالترحيب وعدوها وسيلة من الوسائل التي تقربهم من الله وتجنبهم المصائب والكوارث، وتدفع أذى الحكام وجورهم، وتجلب لهم الرزق وتغفر خطاياهم .

وكثيرا ماكانت المدائح النبوية تبدأ بالتشبيب بالديار الحجازية وذكر معالمها والبكاء على قاطنيها والحنين اليها، ثم التطرق الى احوال العرب واستبداد الغرباء بالحكم ونهب خيرات البلاد ومن ذلك قصيدة الشاب الظريف (٦٨٨هـ) :

قوم هم العرب المحمي جارهـــــم فلا رعى الله الا أوجـــــه العرب

أعز عندي من سمعي ومن بصري ومن فؤادي ومن أهلي ومن نشبي

لَهُمْ عَليَّ حُقـــــــوقٌ مُذْ عَرَفْتُهُم كأنّنـــــــي بَيْن أمّ مِنْهُـــمُ وأبِ

إنْ كان أحسنُ ما في الشعر أكذبهُ فحسنُ شعري فيهمْ غيرُ ذي كَذِبِ

حياكَ يا تربة الهادي الشَّفيع حياً بمنطق الرّعدِ بادٍ من فم السُّـــحبِ

يا ساكِنِي طَيْبَة الفَيْحَاء هَلْ زَمنٌ يُدني المحب لنيل الســؤلِ والأربِ

أرضٌ مع الله عينُ الشمسِ تحرسُها فإنْ تَغِبْ حَرَسَتْهــا أَعْيُنُ الشّهُبِ

وتتسم قصائد المديح النبوي بحرارة العاطفة وصدق التعبير وجمال الاسلوب ورقة الالفاظ ولطف الايقاع الموسيقي، والاستخدام المكثف للاساليب البديعية كالسجع والجناس والمقابلة ورد الاعجاز على الصدور، وقد يتجاوز بعض الشعراء اللغة الفصحى في هذا المديح كما في شعر ابي الحسن الششتري وابي بكر العيدروسي .

المحاضرة الرابعة

٢- الاخوانيات

هي اشعار يتبادلها الاصدقاء بدأ النظم فيها في العصر العباسي، وتقوم مقام الرسائل النثرية وتتضمن اواصر المودة بين الاصدقاء، وتكتب في مناسبات التهنئة والعتاب والاعتذار وطلب الحاجة وانجاز وعد، وربما كانت للممازحة والملاطفة والمفاكهة، وقد أكثر الشعراء من الاخوانيات في هذا العصر ومن هؤلاء ناصر الدين بن النقيب (٦٨٠هـ) الذي جالس كثيرا من الشعراء وصاحبهم وذاكرهم في الشعر ووضع كتابا سماه (منازل الأحباب ومنازه الألباب) ومن شعره الاخواني ماكتبه الى الشاعر سراج الدين الوراق :

ياساكن الروضة: أنت المشتهى من هذه الدنيا وأنت المقتضى

وياسرور النفس بين الشعرا أنت الرضي فيهم والمرتضى

وياسراجاً لم تزل أنواره تعيد مسود الليالي أبيضا

ومالي أراك قاطعا لواصل ومعرضا عن مقبل ما أعرضا؟

فأجابه الوراق بابيات من ذات الوزن والقافية :

ياسهم عتب جاء من كنانة أصبت من سواد قلبي الغرضا

لكن أسَوْتَ ماجرحته بما أعقبته من العتاب بالرضا

يابن النقيب ماارى منقبةً إلا وأولتك الثناء الابيضا

ان ولائي حَسَنٌ في حَسَنٍ إذا ما أرى لعُمرٍ ان يرفضا

وكثيرا ماكان شعراء الاخوانيات يضمنون الاشعار المشهورة لتزداد اشعارهم قبولا وانتشارا كقول القاضي صدر الدين علي بن محمد الآدمي (٨١٦هـ) مخاطبا صديقه الشاعر ابن حجة الحموي (٨٣٧هـ) وضمن ابيات من معلقة امرىء القيس :

أحنُ الى تلك السـجايا وإن نأت حنينُ أخي ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

وأذكر ليـلات بكم قد تصرمت بدارِ حبيبٍ لابـدارة جلجل

شَكوتُ الى الصبرِ اشتياقي فقال لي: ترفقْ ولاتَهلِك أسـىً وتجمل

فقلتُ له : إني عليـكَ معولٌ وهل عندَ ربعٍ دارسٍ من مُعولِ

فأجابه ابن حجة بأبيات ضمنها اشطر اخرى من معلقة امرىء القيس :

سرتْ نسمـةُ منكم إليَّ كأنها بريح الصبا جاءت بريا القُرنفُـلِ

فقلتُ لليلى مُذ بدا صبحُ طُرسـها: (الا أيها الليل الطويـل ألا انجل)

ورقت فأشعار امرىء القيس عندها (كجلمود صخر حطه السيل من عل)

فقلت : قفا نضحـك لرِقتها على (قفا نبكِ من ذِكـرى حبيبٍ ومَنزل)

وهذه الامثلة الشعرية لا ابداع فيها، وتغلب عليها الصنعة وتخلو من الاخيلة والمعاني الدقيقة، وتعتمد على اوزان وقوافي اشعار القدامى.

وقد قيل الكثير من الشعر الاخواني في مجالس الامراء والادباء والاثرياء التي كانت تعقد في اوقات محددة وربما كانت تعقد مصادفة، وربما يتخلف بعض الادباء عن حضور المجالس، فينظم ابياتا ويرسلها لصاحب المجلس لشرح الاسباب، كما فعل الشاعر حسن عبد الباقي العمري (١١٥٧هـ) حين اعاقه سوء صحته وهطول المطر عن الحضور :

حسَدَ السحابُ نِدى يمينك إذ رأى منهُ النُظار يسيلُ سيلَ الماءِ

فأعاقني وحلُ الطريقِ وبعضُ ما ألقاه في جسدي من البُرحاء

كم من صديقٍ لا يزورُ صديقـهُ فرطُ الزيارةِ شيمةُ الأعـداء

وكان الشعر الاخواني المنظوم في المجالس الأدبية مرتجلا وعلى شكل مقطوعات، ويفتقر الى الابداع في الاخيلة التي تشكل الصور البديعة .

ويمكن اعتبار الشعر الملغز والأحاجي من ضمن الشعر الاخواني، وهو من الرياضة الذهنية وضرب من ضروب التسلية الاجتماعية، وقد افرد بعضهم بابا مستقلا لهذا النمط، ومن ذلك ماكتبه نصير الدين بن احمد الحمامي (٧١٢هـ) الى زميله سراج الدين عمر الوراق ملغزا في النار :

ما أسمٌ ثلاثيٌ له النفـــعُ والضررُ له طلعةٌ تُغني عن الشمسِ والقمرْ

وليسَ له وجهٌ وليـــــسَ لهُ قفا وليسَ له سمـــــعٌ وليسَ له بصر

يمدُّ لساناً تختشي منهُ الريحُ بأسهُ ويسخرُ يومَ الضربِ بالصــارمِ الذكر

يموتُ إذا ماقمـــتَ تسقيهِ قاصداً وأعجبُ من ذا أن ذاك من الشجـــر

فأجابه الوراق :

أراك نصير الدين ألغــزتَ في التي تُعيدُ لمسكِ الليلِ كافـــورة السحرْ

رأى معشرٌ أن يعشقـــوها ديانةً وتاللهِ لاتُبقي عليـــــــهم ولاتذر

وكلٌ على قلبٍ لهم رانَ اسمـــها فمسكنُهم منها ومأواهـــــمُ سقر

وقد وصفوا الحسناء في بهجة بها كما وصفوا الحسناء بالشمس والقمر

ولو لم تكنْ ماطابَ خبزٌ لآكـــــلٍ ولا لذ ماءٌ في حمـــــاك لمن عبر

وهذا النظم مرهق للذهن ومتعب للفكر، ويتطلب وقتا لفك معانيه ومعرفة اجابته، وقد اكثر الشعراء من النظم فيه، ومنهم الشاعر ابن الوردي الذي وضع (٢٨) احجية على حروف المعجم، ولكل احجية عنوان، وتقع الاحجية في بيتين وتبدأ بحرف النداء (يا) .

ويدخل في اطار الاخوانيات ايضا مايسمى بالتاريخ الشعري، وهو ضبط تاريخ مناسبة معينة بحساب الجمل وذلك بترتيب الحروف الابجدية ومايقابلها من ارقام، وقد بدأ هذا النمط في

العصر العباسي ، وهو من النظم المتكلف جدا، ويستحب ان يكون التاريخ الشعري في عجز البيت، ومن ذلك ماقاله الشاعر حسن عبد الباقي الموصلي في تأريخ ولادة رجل يدعى زبير بن ابراهيم الجليلي وهي سنة ١١٤٨هـ :

فيازبير لك البشـــرى بخير أب ويا أباه بنجـــــــل بين الوطف

دعني أخص بمدحي مامؤرخه (زهو الوجود زبيرا أحسن الخلف)

١٨ +٥٠+ ٢٣٨+ ١٠٩+ ٧٤١= ١١٤٨

المحاضرة الخامسة

٣- الزهد والتصوف

انتشر الزهد والتصوف كثيرا بعد سقوط بغداد، بعد الاهوال العظيمة التي اصابت الناس، فاتجهوا الى الله سبحانه كي يخفف عنهم المصائب ويدفع الفقر والحرمان ويعيد لهم الامان، أما شعر الزهد فقد بدأ في العصر العباسي على ايدي الزهاد، وقد بلغ الذروة عندهم، وازداد في العصر الوسيط وتميز بسهولة المعاني والبعد عن التعقيد، وكان اغلبه في الدعاء الى الله بالرحمة والعفو وغفران الذنوب، ومن ذلك قول ابي البركات محمد بن يحيى الربعي :

ولم أجد لي مـــلاذا سواك يكشف ضري

فلا تكلني لنفســـي واشرح الهي صدري

وعافني واعف عني وامنن بتيسير امري

بباب عفـــوك ربي انخت اينق فقـــري

فلا ترد ســـــــؤالي واجبر بحقك كسري

وكان الشاعر الزاهد يرى الدنيا فانية ، فلا ينشغل بملذاتها، وان بقاءه فيها انما هي امانة عما قريب ستسترد ولذلك قال احدهم :

إنما الدنيا فنــاء ليس للدنيا ثبوت

إنما الدنيا كبيـت نسجته العنكبوت

كل مافيها لعمري عن قليل سيفوت

ولقد يكفيك منـها أيها الطالب قوت

ويتضح من الشاهدين سهولة ووضوح المعاني، واتخاذ الاوزان الخفيفة، اقتداء بشعر الزهد العباسي الذي يتزعمه ابو العتاهية الذي نظم زهدياته بلغة واضحة كي تصل الى الجمهور بسهولة، ولذلك استحسن الناس والنقاد القدامى هذا الشعر، على خلاف موقفهم من شعر التصوف الذي كثر فيه استخدام الرموز والمصطلحات الصوفية ربما بتأثيرات خارجية غير عربية .

فقد اتجه المتصوفة الى استخدام معجم الشعر الغزلي تعبيرا عن عشقهم الالهي الذي هو غايتهم القصوى، أو حبهم للنبي الكريم (ص)، وقد انفرد بعضهم بأحد العشقين، وجمع بعضهم بين العشق الالهي والحب النبوي، وقد اتخذ شعرهم اسلوبين مختلفين للتعبير عن مواجدهم، ومايقاسونه من انفعالات، الاول : **اسلوب التصريح الخالي من الرموز والالغاز**، وهو شعر يسهل على القارىء استنتاج المقصود منه فهو اما في العشق الالهي ووصف جلال وجهه سبحانه، وكمال صفاته، وأما حب نبوي، اذ يصفون مناقب النبي الكريم ومآثره، والاسلوب الاخر: **أسلوب الاشارة والتلويح** وهو مليء بالغموض ويكثر فيه استخدام المجاز والاستعارة والكناية مما يزيده تلغيزا .

استعمل الشعراء المتصوفة الشعر الغزلي بما فيه من الفاظ وتعابير، وحتى اسماء محبوبات الشعراء مثل ليلى وسلمى وسعدى وبثينة كرموز وصولا لمعان الهية لايفهمها الا قائليها ومن يشاكلهم، وقد جاء استخدامهم لهذا الشعر لتقريب معانيهم الى الاذهان قدر الامكان، ومن ذلك قول عفيف الدين اليافعي في العشق الالهي متخذا من اسماء مثل ليلى العامرية وسعدى :

قفا حدثاني فالفـــــــــؤاد عليل عسى منه يشفى بالحديث غليلُ

أحاديث نجد عللاني بذكـــــــرها فقلبي الى نجد أراه يميـــــــلُ

بتذكار سعدى أسعداني فليس لي الى الصبر عنها والسلو سبيـــلُ

ولا تذكرا لي العامـــــــرية إنها يولهُ عقلي ذكـــــــــرها ويزيل

ولكن بذكري عرضا عنـــــدها فإن تقل كيـــــف هو قولا بذاك عليل

فإن تعطفي يشفى وإن تعرضي ففي هواك المعنى المستهـــــــام قتيل

ولم يكن للمتصوفة سوى العشق الالهي والحب النبوي، وهما الغاية الاسمى في حياتهم الفانية، والطريق الصحيح الى دار البقاء، فقد قال الشاعر يحيى بن يوسف الصرصري:

عطفا على قلب بحبـــــــك دائم إن لم تصله تصدعت أعشـــارهُ

وارحم كئيبا فيـــــك يقضي نحبه أسفا عليك وما انقضت أوطارهُ

لايستفيـــــق من الغـــــرام وكلما حجبوك عنه تهتكت اســـــراره

مااعتاض عن ذكر الحمى ظلا ولا طابت بغير حديثكم أسمـــــاره

هل عائد زمـــــن تضوع نشـــــره أرجا ورقت بالرضا أسحـــــاره

وكان الشعر الصوفي كثيرا مايتضمن ذكر البقاع الحجازية وتعداد اسماءها والحنين اليها والى ساكنها الرسول الكريم، ومن ذلك قول جمال الدين محمد بن الحسين :

أنا العاني الكئيب المستهـــام منامي بعد بعدكم حـــــــرامُ

رشقتم مهجتي بسهـــام لحظ أصابت مقلتي تلك السهـــام

تناءى الصبر عني مذ رحلتم وحالفني لفقدكم السقـــــام

ورام عواذلي سلـــــوان قلبي وذلك في هواكم لايُـــــــرام

أأسلو حبكـــــــم ياأهل نجد وحشو جوارحي نار ضـــرام

ترى ياساكني وادي المصلى أراكم قبل يفجؤني الحمـــام

فبين قبابكم قلبـــــــي أسير وبين خيامكم دمعي سجام

ينوح إذا حدا حادي المطايا ويندب كلما ناحت حمـــام

المحاضرة السادسة

الفنون الشعرية المستحدثة

شهد العصر العباسي ظهور مجموعة من الفنون الشعرية الجديدة تختلف عن الشعر التقليدي المعروف، لم تكن موجودة فيما سبق، وقد تطورت في العصر الوسيط ولاقت رواجا كبيرا، وبعض هذه الفنون عربي والأخر غير عربي، وأغلبها ملحون ولايجري على طريقة العروض العربي، وسبب نشوئها اختلاط الاجناس في المدن العربية، واختلاف الثقافات والعادات، وهي سبعة فنون هي : **الدوبيت والموشح والزجل والمواليا والكان وكان والقوما والبند** .

ويعد صفي الدين الحلي أول من اهتم بهذه الفنون وجمعها في كتابه (العاطل الحالي والمُرخَص الغالي) ماعدا فن البند، واشار الى أن أغلبها بعيدة عن قواعد النحو والصرف والفصاحة وانها تعتمد على الالفاظ العامية .

١ –الدوبيت

هو لفظ فارسي معناه البيتان، ظهر في مدينة سمرقند التابعة لما يسمى بلاد ماوراء النهر في القرن الرابع الهجري، ومخترعه هو الشاعر جعفر بن محمد بن

حكيم السمرقندي الروذكي (٣٢٩هـ) وتبعه شعراء كثر مثل عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة، وعبد الرحمن الجامي (٨٩٨هـ)، وهو فن فصيح غير ملحون يسميه العرب (الرباعي)، ويتكون من اربعة مصاريع ، يكون للمصراع الاول والثاني والرابع قافية واحدة، وقد شاع استخدامه في العراق والشام ثم مصر، ووزنه الغالب هو :

فعلُنْ مُتَفاعلُن فَعُولنْ فَعلُنْ فعلُنْ مُتَفاعلُن فَعُولنْ فَعلُنْ

وقد شاع استخدام الدوبيت كثيرا في البلاد العربية ونظم فيه العشرات من الشعراء منذ القرن الخامس الهجري، كما يرى الدكتور كامل مصطفى الشيبي في كتابه (ديوان الدوبيت في الشعر العربي) ومن هؤلاء الشهاب السهروردي، وابن النبيه المصري، والعماد الاصبهاني، والشاب الظريف، وصفي الدين الحلي، وفتيان الشاغوري، والبهاء زهير وغيرهم، وقد طرق الشعراء اغراض متعددة في فن الدوبيت كالغزل والجهاد والزهد والتصوف وغيرها، فمن الغزل قول فتيان الشاغوري :

الورد بوجنتيـــــــك زاهٍ زاهر والسحر بمقلتيـــك وافٍ وافرْ

والعاشق في هواك ساهٍ ساهر يرجو ويخاف فهو شاكٍ شاكرْ

وقد نظم القاضي نظام الدين محمد الاصبهاني ديوانا كاملا في هذا الفن سماه(نخبة الشارب وعجالة الراكب) يحوي ٥٤٣ دوبيتا على حروف الهجاء جميعا، تتوزع بين العشق والتصوف ومنه قوله :

دعني وتنسمي صبا الاشواق ماالعيش سوى رياضة الاخلاقِ

لا أرغب عن مصارع العشاق إن مـــــتُ على ذاك فإني باقِ

وقد أكثر الزهاد والمتصوفة المتأخرون من نظم الدوبيت ومنهم فضولي البغدادي الذي يقول :

الحمد لمن أنار قلبي وهدى والشكر لما فيه من الشوق بدا

مأمدح واهبـــاً سواه أبداً لا أشرك في ثنـــاء ربي أحدا

٢- الموشح

فن شعري يتكون من أدوار وقواف محددة، سمي بذلك لأنه يشبه الوشاح وهو أشبه بقلادة من نسيج عريض مرصع بالجوهر تشده المرأة على عاتقها، وقد ظهر في الأندلس أواخر القرن الثالث الهجري وعبروا فيه عن مكنونات أنفسهم، واختلفوا في مبدعه بين من يقول انه محمد بن محمود القبري، أو مقدم بن معافر الفريري، وسبب ابتداعه هو الرغبة في الخروج عن الاوزان الشعرية التقليدية وميل أهل الاندلس الى الرقة والطرب والغناء وهذا يتطلب الخروج عن الاوزان التقليدية الصارمة، وقد بدأوا باستخدام الاوزان العروضية الخفيفة كالرمل والهزج وغيروا قوافيها فنشأ لديهم الموشح، ثم توسعوا في ذلك وتجاوزوا الاوزان والقوافي .

وكان النظم في الموشح اولا من نصيب الشعراء الظرفاء بداعي اللهو والتسلية، ثم انتشر بعد ذلك ونظم فيه حتى الحكماء والواعظين والفقهاء وكذلك المتصوفة ومنهم الشيخ محيي الدين ابن عربي، وينظم الموشح بالفصحى والعامية، أما الموشحات الفصيحة فتجري على العروض العربي بينما تخرج الموشحات العامية عن العروض، وذلك لأنها تؤثر التسكين على التحريك، وكلا النوعين متعدد القوافي، وقوافيهما متناوبة وفق شكل معين وعادة ماتختتم الموشحة بلفظة عامية .

انتقل الموشح الى بلاد المشرق أواخر القرن الخامس الهجري، ويمكن القول ان الشاعر المصري ابن سناء الملك هو من ادخله الى المشرق، ويقال ايضا انه انتقل بوساطة رحلات العلماء والادباء، وكانت مصر سباقة في الموشح واشهر من نظم فيه ظافر الحداد الاسكندري وابن قلاقس وهما من القرن السادس الهجري، غير ان اشهر شعراء الموشح المصريين هو ابن سناء الملك الذي وضع كتابا سماه (دار الطراز في عمل الموشحات) وهو يمثل تطورا في الموشح المشرقي ومنافسته للموشح الاندلسي فنيا، وهو يقارن بين موشحاته وموشحات الشعراء الاندلسيين، وقد زاد ابن سناء عدد اجزاء الموشح الواحد الى أحد عشر بدل ثمانية اجزاء وهو العدد الذي وضعه الاندلسيون .

ومن أمثلة الموشحات المشرقية قول خليل بن ايبك الصفدي:

ياصبا مسكية النفـــس أنت قد جددت لي الولعا

كانت الأحشاء قد خمدت

وسيول الدمع قد جمدت

وأيادي الصبر قد حمدت

ثم لما سرت في الغلس بان صبري والسلو معا

كيف أحبابي، هل ادكروا

من به قد أودت الفكـــر

وشكوا بلواه أو شكــروا

وهل العهد القديم نسي فالوفا والبعد ماجتمعا

وعادة ماتكون الموشحة أقصر من القصيدة العمودية، لأنها مرتبطة بالموسيقى والغناء، ولأنها تغنى في مجلس واحد، ومن هنا كان يجب تغيير وزنها وقافيتها، وتنقسم الموشحة من حيث الوزن الى قسمين : الاول يجري مع اوزان الشعر المعروفة، والثاني لاوزن له وهو الاكثر، وقد نظم الوشاحون في اوزان كثيرة لاحصر لها، وتتسم الموشحات الاندلسية بالتساهل في اللغة الفصحى لارضاء اذواق المستمعين، بينما كانت الموشحات المشرقية اكثر تشددا في لغتها وان لم تخل من اللحن .

أجزاء الموشحة

١- **المطلع** : كل موشح يحوي مطلعا يسمى تاما، وإذا كان خاليا من المطلع يسمى أقرع، ومثال الموشح التام موشح الصفدي المذكور .

٢- **القُفل** : وهو يشبه المطلع في الوزن والقافية، وليس له عدد محدد وأقل عدد هو خمسة أقفال، ويتكون القفل الواحد جزأين فأكثر الى ثمانية أو عشرة .

٣- **الغصن** : هو القسم الواحد من المطلع والقفل والخرجة، وقد يكون جزأين او ثلاثة أو أربعة .

٤- **الدور** : يأتي بعد المطلع إن كان الموشح تاما، وقد يأتي اولا إن كان الموشح أقرع، وادنى مايكون ثلاثة اجزاء، وقد يزداد فيكون أربعة أو خمسة ولايتجاوز ذلك الا نادرا .

٥- **السمط** : هو القسم الواحد من الدور، ويكون مفردا كما في موشحة الصفدي وقد يكون من فقرتين أو ثلاث او أربع .

٦- **البيت** : هو الدور مع القفل الذي يليه .

٧- **الخرجة** : هي اخر قفل في الموشح، والقفل والخرجة ركن اساس في الموشح وبدونهما لايستوفي الموشح شروطه، وتكون الخرجة ملحونة غالبا، وهذا من محاسنها، وهي تعني عند بعض النقاد الخروج من الكلام الفصيح الى الملحون .

وقد طرقت الموشحات المشرقية أغراض كثيرة فضلا عن الغزل، كالمجون والخمر والمديح والهجاء والرثاء والزهد والتصوف والاخوانيات، وتتميز الموشحات المشرقية بالاغراق في استخدام فنون البيان والبديع ولاسيما التورية، ومنهم مثلا ابن نباتة المصري، وقد استمر المشارقة بنظم الموشح والتفنن فيه حتى بعد سقوط الاندلس وصولا الى القرن التاسع عشر الميلادي .

المحاضرة السابعة

٣- الزجل

الزجل في اللغة اللعب والجلبة ورفع الصوت، وربما سمي الغناء زجلا، وهو فن يعتمد على الغناء والحركة حتى يلتذ به سامعه، فالحركة والغناء ضروريان لفهم اوزان الزجل، ومعرفة قوافيه والتلذذ به .

وهو فن أندلسي نشأ في اواخر القرن الرابع الهجري على يد بعض الزجالة واشهرهم الزجال أخطل بن نمارة، وقد وصل الزجل اوج ازدهاره في القرن السادس الهجري على يد الشاعر ابي بكر بن قزمان وهو شيخ الزجالين، ثم مال الزجل الى التصوف والزهد في القرن السابع الهجري بسبب المحن والمصائب التي اصابت الاندلس، وانتقل الزجل الى المشرق ودخل الى مصر اولا بسبب قربها من المغرب، ثم انتقل الى الشام والعراق، وقد اعتنى به صفي الدين الحلي كثيرا فجعله اول الفنون المستحدثة في كتابه (العاطل الحالي) وهو يرى ان الزجل ارفع هذه الفنون رتبة واشرفها وأكثرها أوزانا، ومازالت قوافيه تتعدد وأوزانه تتجدد .

قسم الحلي الزجل الى اربعة أقسام متشابهة في الوزن ويفهم الفرق بينها من المضمون، يسمى الاول(الزجل) ويتضمن الغزل والنسيب والخمرة ، ويسمى الثاني (بُليقا) ويتضمن الهزل والخلاعة، ويسمى الثالث (قرقيا) ويتضمن الهجاء والمثالب، ويسمى الرابع (مُكفرا) ويتضمن المواعظ والحكمة .

والزجل فن ملحون غير معرب، يغلب عليه التسكين ويصلح للغناء، وينظم على بحور الشعر المعروفة وبحور اخرى اخترعها الزجالة، ويتكون البيت فيه من اربعة أشطر او مصاريع، تكون ثلاثة منها على روي معين، والرابع من روي مغاير، وعادة مايشيع الجناس في القوافي الثلاث الاولى، وهو يشبه الموشح من ناحية احتوائه على الاقفال، وكل قفل يحوي على بيتين، ويكون للبيت الواحد رويان الاول للبصدر والاخر للعجز .

شاع الزجل كثيرا في مصر ومن شعرائه المشهورين في مصر الشاعر عبد الملك بن الاعز الاسنائي الذي يقول

جفوني ماتنـــــام إلا لعلـــــي أن اراك

فزرني قد براني الشو ق ياغصن الأراك

وطرفي مارأى مثلــك وقلبي قد حــواك

فهو لم يزل مسكن فسبحان الذي أسكن وحسنك كم به أفتن

وماقصدي ســــــواك

حبيبي آه ماأحلى هواني في هواك

****

فخلِّ الصد والهجــران ولا تسمع مـــــلام

وصلني ياقضيب البان ففي قلبي ضـــــرام

وجُد للهائم الولهـــان يابدر التمـــــــام

وزُر ياطلعة البدر ودع ياقاتلي هجري وأرفق قد فني عمري

وعُد ايام وفـــــاك

واسمـــح أن أقبل يا مليح بالله فـــــــاك

وبعد مصر شاع الزجل في الشام ونظم فيه عامة الناس وخاصتهم، وعبروا عن احاسيسهم ومشاعرهم، وازداد عدد الزجالة الشاميين ومنهم شهاب الدين احمد الامشاطي، وعلي بن مقاتل الحموي، وابن حجة الحموي، ثم وصل الزجل في العراق وأقبل عليه الشعراء، ويرى صفي الدين الحلي ان الازجال البغدادية رقيقة وكانت تنظم بألفاظ لطيفة، وباللهجة العامية، باستخدام الامالة والإدغام وتبديل حرف بأخر جريا على عادة الكلام البغدادي الملحون، وقد شاع فيها المجون والتهتك والخلاعة، ومن هؤلاء الشاعر تقي الدين علي بن العزيز البغدادي، وصفي الدين الحلي الذي جمع في ازجاله بين حلاوة الزجل المصري ولطافة الزجل الشامي وظرافة الزجل العراقي، فقد وضع مثلا زجلا يقوله المسحراتي في ليالي رمضان وفيه مدح لملك مدينة ماردين :

أنت ياقبلة الكـــــــــرام زينة المال والبنيـــــــن

الله يعطيك فوق ذا المقام ويعيدك على السنيـــــن

أنت شامـــــه بين الأنام الله يحرس شمايلـــــــك

ويؤيـــــــــــدك بالدوام تانعيش في فواضلـــــك

وتا نطوي ذكر الكـــــرام لما ننشر فضايلـــــــــك

ونهنيك بكل عـــــــــام والخلائق تقـــــول أمين

المحاضرة الثامنة

٤- المواليا

هو فن اخترعه أهل واسط في العصر العباسي في أواخر القرن الثاني الهجري ، وأول من نظم فيه هم خدم البرامكة عندما رثوا اسيادهم، حيث منع هارون الرشيد رثاء البرامكة بالفصحى فراح هؤلاء الخدم يرثون البرامكة بألفاظ غير معربة وينهون كل مقطع بقولهم (ياموالیا) ، وكان

ينظم على بحر البسيط بألفاظ جزلة قوية مثما ينظم الشعر الفصيح ويطرق فيه موضوعات الغزل والمديح والرثاء وغيرها، ثم انتقل بعد ذلك الى بغداد فلطفه الشعراء ورققوه وحذفوا الاعراب منه، حتى نسب الى أهل بغداد والصحيح أنه واسطي .

يتكون المواليا من اربعة مصاريع متشابهة الأواخر ساكنة الروي، ولايلتزم بضوابط الاعراب ومنه مثلا قول أحد الشعراء البغداديين :

ظفرت ليله بليلـــــــــى ظفرة المجنونْ

وقلت وافى لحظي طالـــــــــع ميمونْ

تبسمت فأضـــــــــاء اللؤلؤ المكنونْ

صار الدجى كالضحى فاستيقظ الواشونْ

وقد شاع هذا الفن في اواخر العصر العباسي وانتشر اكثر في العصر الوسيط ونظم فيه العديد من الشعراء ومنهم عز الدين الموصلي ومجد الدين اسعد بن ابراهيم النشابي، وصفي الدين الحلي، فمما قاله الحلي في العتاب :

عني تسليت وأسياف الهجر سليتْ

ومذ توليت عن طــرق الوفا وليتْ

لما تمليت بالأعمـــــــال لي مليتْ

إذا تخليت تعـــرف قدر من خليتْ

وقد تفنن المصريون فيه ونظموه على لهجتهم بلا اعراب ونظم فيه كثير من شعرائهم كابن الفارض وأحمد بن علي الحجازي وبدر الدين الزيتوني، وعبد العزيز بن عبد الغني وهو شاعر متصوف تنسب له هذه المواليا :

لم تدعي الذوق والوجدان والأحـــوالْ

وأنت خالي من الإخلاص في الأعمالْ

ارجع لجسمك فسم البين لك قتـــــالْ

ترمي حجر مايشيله خمس ميت عتالْ

وشاع ايضا لدى اهل الشام وغناه المطربون ومن شعراء المواليا نذكر خليل بن ايبك الصفدي وعز الدين ابراهيم بن محمد ابن السويدي وابن حجة الحموي، واستخدموه في الحرب، ويلاحظ ان المواليا المصري والشامي متشابهان بسبب خضوع البلدين للحكم الايوبي ثم الحكم المملوكي لمئات السنين .

٥- الكان وكان

فن اخترعه البغداديون في القرن الخامس الهجري ثم شاع في البلدان العربية، وسبب تسميته أنهم يقولون في أول الحكايات (كان وكان) للدلالة ان هذه الحكايات لاأساس لها، وقد ابدع فيه اهل بغداد ولم يجاريهم فيه أحد، ونظموا فيه الحكايات والخرافات، وهو فن ملحون يتكون من اربعة اشطر مختلفة وينتهي الشطر الاخير بحرف علة، وتسمى الاشطر الاربعة بيتا ووزنه هو:

مستفعلن فاعلاتن مستفعلن مستفعلن

مستفعلن فاعلاتن مستفعلن فعـــلان

وعادة ماتنظم فيه المواعظ والحكم والزهديات والأمثال، ونظم فيه كبار العلماء والفقهاء كجمال الدين ابن الجوزي وشمس الدين الواعظ ولذلك فقد انتشر كثيرا بين الناس، ونظم فيه صفي الدين الحلي ايضا وهو القائل :

أي سادة هجـروني وهم نزول بخاطري

لا أوحش الله منكم في سائر الأوقاتْ

****

أوحشتـــــم العين مني وإنكم في خاطــري

والقلب في النور منكم والعين في الظلمات

****

قد انتهى الصبر مني ومابقى في رمق

هيهـــــات أني أحيا من بعدكم هيهات

ثم شاع بعد ذلك في مصر وسمي بـ(الزكالش) أيام الفاطميين، ومن شعرائه شرف الدين بن أسد وبدر الدين الزيتوني وابراهيم المعمار، ومنه قول احد الشعراء

النار بين ضلوعي ونا غريق في دموعي

كني فتيلــة قنديل أموت غريق وحريقْ

ولم يكتب للكان وكان ان يشيع في الشام كثيرا، ونظم فيه قلة من شعراء الشام، ومنهم علي بن الحسن الحريري وعمر بن الوردي، ولم يتقن اهل الشام النظم فيه كما فعل العراقيون، ومن أمثلته الضعيفة قول ابن الوردي في مرض الطاعون الذي انتشر في الشام :

أعوذ بالله ربـــي من شر طاعون النسب

باروده المستعلي قد طار في الاقطـــار

المحاضرة التاسعة

٦- القوما

فن بغدادي ظهر في القرن السادس الهجري على يد أبي بكر محمد بن عبد الغني المعروف بابن نقطة (٦٢٩هـ)، والغاية منه ايقاظ الناس وقت السحور، وكان العاملون على التسحير يقولون في أخر كل بيت (قوما للسحور) لتنبيه أرباب المنازل ومدحهم والدعاء لهم وطلب المكافأة، ، ثم لما شاع القوما صار يستخدم في الغزل والعتاب واغراض اخرى .

وكان الخليفة العباسي الناصر لدين الله يجزل العطاء لابن نقطة، فلما توفي خلفه ولده وكان ماهرا في نظم القوما وأراد أن يبلغ الخليفة بموت أبيه فاستغل شهر رمضان وقف قرب قصر الخليفة فغنى بصوت جميل وطرب له الخليفة ونظم القوما التي تقول :

ياسيد الســادات لك بالكرم عادات

انا بني ابن نقطة تعيش ابويا مـات

فاعجب الخليفة به وخلع عليه واجزل له العطاء، وكان القوما ينظم بالفصحى والعامية، وغالبا ماكان خارج اوزان الشعر المعروفة، وهو يتضمن معاني جديدة وغريبة ، ويتكون من اربعة اشطر يكون الاول والثاني والرابع بقافية واحدة، بينما يكون الشطر الثالث اطولها وبدون قافية، وتسمى الاشطر الاربعة بيتا، وهو على وزن (مستفعلن فعلان أو (فاعلان)، وأغلبه في المديح، ومنه قول صفي الدين الحلي مادحا ملك حماة في شهر رمضان :

لازال سعـــــدك جديد دايم وجــدك سعيد

ولا برحــت مهنـــــى بكل صـــوم وعيد

***

في الدهر أنت الفريد وفي صفاتك وحيد

فالخلــق شعر منقح وأنت بيت القصيد

***

لا زلت في تأييد في الصوم والتعييد

ولابرحـــت تهنى في كل عام جديد

وقد استخدم الحلي اسلوبا سهلا ميسورا في المدح، وتضمن نعته بالعظمة ووصفه بالجواد ودعا له بطول العمر وهذه هي المعاني التقليدية للمدح .

ولم ينتشر القوما كثيرا في مصر وبلاد الشام مثلما انتشر الموشح والدوبيت والزجل، ويعد بدر الدين الزيتوني اشهر من نظم القوما في الشام ومنه قوله وهو قريب من الزجل :

في نظم قوما أقـول

وابدأ بمدح الرسول

فيه امتداحي يطول

فقد عجز عن مديحه أهل الربى والبطـــاح

****

نظمي يقر العيـــون

عند الكرام العيـــــون

في القلب ينبع عيون

فاشرب وروي واروي عني فنـــون اقتراح

٧- البند

فن نشأ في جنوب العراق في القرن الحادي عشر للهجرة، ثم شاع في الخليج العربي، ويكتب على هيئة النثر على وزنين متداخلين هما الهزج والرمل دون الخروج عن العروض العربي، وهو يشبه الشعر الحر من زاوية انه يعتمد على التفعيلة وليس الشطر، وقد نظم فيه كبار الشعراء العراقيين مثل أبي معتوق الموسوي، وعبد الغفار الاخرس، ومحمد ابن اسماعيل المقلب بابن الخلفة، وعلي بن باليل الدورقي وغيرهم .

وينشد العراقيون البند بطريقتين : أما بإعراب أواخر الكلمات وهذه هي الطريقة السريعة، أو الوقوف اختيارا في مواضع القوافي حيثما يمكن الوقوف، وهذا يكسب البند رشاقة وظرفا

وموسيقى، لانجدها في الفنون الاخرى الخارجة عن العروض كالموشح مثلا، والطريقة الثانية هي الاوسع انتشارا .

وقد توسع الشعراء في نظم البند مثل الشاعر علي بن باليل الدورقي وهو من ابرز شعراء الاحواز، وقد جمع قسما من بنوده في كتاب وعددها ١٥٣ بندا على بحر الرمل في الغزل والمدح، واضعا في كل بند ٤٠ كلمة اسماً أو فعلاً أو حرفاً، مشيرا في كل واحد الى مسألة علمية او صناعة بديعية .

يطرق البند الموضوعات التقليدية كالمديح والغزل والهجاء والوصف وغيرها، ومنه قول عبد الغفار الاخرس في مطلع احد البنود المدحية وهو مطلع غزلي : (محبٌ ذائب الدمع، رماه البين بالصدع، بكى من حرقة الوجد، على من حفظ العهد، وخشف ناعم الخد، مليح عبل الردف، صبيح لين الوطف ، أدار الكاس والطاس، وحاكى الورد والآس، لعمري منه خدا وعذارا، ولقد طالت عليه حسراتي بعدما كانت قصارا) .

المحاضرة العاشرة

شعراء العصر الوسيط

١-شمس الدين الواعظ الكوفي

هو محمد بن احمد بن عبيد الله الهاشمي، ولد في الكوفة سنة ٦٢٣هـ، وهو من أسرة تحب الادب والعلم، درس علوم اللغة وأدابها، عمل مدرساً وخطيبا وواعظا في بغداد، وكان يدعو في خطبه الى التمسك بالدين والتكاتف ويحذر من الاعداء، وحين غزا المغول بغداد سنة ٦٥٦هـ قتلوا ودمروا ونهبوا كل ماصادفهم، فكان وقع ذلك على الكوفي عظيما، فرثى في شعره بغداد ودولة بني العباس ووصف فظائع المغول، توفي شمس الدين في بغداد سنة ٦٧٥هـ .

طرق الكوفي في شعره الرثاء والغزل والوصف، وكان الغالب فيه هو الرثاء، فقد رثى اصحابه وأهله بقصائد صادقة تفيض صدقا، وبكى بغداد وما آل اليه حالها، ومن رثائه لأحبته بعد دمار بغداد :

عندي لأجـــل فراقكـــــم آلامُ فإلامَ أُعذل فيكـــــم وأُلامُ
من كان مثلي للحبيـــب مفارقا لاتعذلـــــــوه فالكلام كلامُ
نعم المساعد دمعي الجاري على خديَّ إلا إنهُ نمَّـــــــــامُ
قف في ديار الظاعنـين ونادها (يادارُ مافعلـــت بك الأيام)

وهو مقطع غزلي يشابه شعر العشاق المتيمين، وقد استمر على هذه الوتيرة في القصيدة، اي بكاء الاحبة دون الالتفات الى حال بغداد من دمار وخراب:

ياليت شعري كيف حالُ أحبتي وبأي أرض خيمـوا وأقاموا ؟
ما لي أنيـــس غير بيت قاله صبٌ رمتهُ من الفِراق سِهامُ
(واللهِ مااختـــرتُ الفِراق وإنما حكمت عليَّ بذلك الايـــام)

وهكذا كانت كل قصائده في رثاء بغداد، فهي بكاء على الاحبة الراحلين، والجزع على فراقهم، وتمني الموت بعدهم، ويلاحظ في شعر الكوفي كثرة استخدام الفنون البديعية وخاصة الجناس والطباق والمقابلة كقوله :

ملابس الصبـــر نبليها وتبلينا ومدة الهجـــر نفنيها وتفنينا
كنا جميعا وكان الدهر يسـعدنا والكائنات بكأس الامن تسقينا
فالآن قرت عيون الحاسدين بنا بما جرى واشتفت منا أعادينا
فصـــار يرحمنا من كان يأملنا وعاد يبعـــدنا من كان يغلينا
وبات يخذلنا من كان ينـــصرنا وصار يرخصنا من كان يغلينا

وفضلا عن الرثاء تميز الكوفي بما يسمى (الغزل الصوفي) الذي يتضمن الحنين الى الديار الحجازية والتغني بها ومدح النبي وأصحابه، على طريقة الشريف الرضي في (الحجازيات)، وهو شعر يتسم بالصفاء والعاطفة الصادقة، ومنه قوله :

ترى هل لنا بعد الفراق تآلـــفٌ وهل لي الى طيب الوصال وصولُ

لأشكو إليه ما لقيـــت وما الذي جرى لي ودمعـــــي شاهد ودليلُ

فوالله مايشفي المشـــوق رسالة ولا يشتكي شكـوى المحب رسول

وهو هنا يشرح عذاب المحب وآهاته وسهاده وعدم سكونه، وهذا قريب من شعر المتصوفة، الذين يحاولون بعذابهم ووجدهم الوصول الى ذات الله تعالى، ومن الطبيعي أن يزخر هذا النمط الشعري بمصطلحات المتصوفة كقوله مثلا :

ماللقلوب ســـوى الحبيب أنيس هو للفؤاد منـــادم وجليسُ

لايدرك المعقول لطف جمال من أهوى فكيف يناله المحسوسُ

كم قد كتبت إليه قصة غصتي بمداد دمعي والخدود طروسُ

دمعي بذكرك مطلقٌ ومسلسلٌ وصبابتي وقف عليك حبيس

وقد أبدع الكوفي في الوصف ايضا، ومن ذلك مثلا قصيدة رائية تناول فيها الربيع ببهجة أزهاره ورياحين بساتينه الندية وروعة اطياره الشجية :

والطل من فوق الرياض كأنه درر نثرن على بساط أخضر

وترى الربى بالنور بين متوج ومدملج ومخلخل ومســـــور

والورق بين مرجـــع وموجع ومفجع ومسجع في منبـــــر

١- شرف الدين البوصيري

اشهر شعراء المديح النبوي في العصر الوسيط، ولد بصعيد مصر سنة ٦٠٨هـ، وقد تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وقرأ اللغة والادب العربي، وانتقل الى القاهرة ودَرَّس في الجوامع قراءة القرآن وتجويده، ودرس التصوف وعمل كاتبا وجابيا، ثم انقطع الى تحفيظ القرآن، وطال به العمر وأصيب بمرض أقعده عن الحركة وتوفي بالاسكندرية سنة ٦٩٥هـ .

نظم البوصيري شعرا كثيرا في أغراض كثيرة فضلا عن المديح النبوي، فهو يصف حال المجتمع، ويشكو حاله، وينتقد الفاسدين، ويطرق الشعر الصوفي بكثرة، وينظم في الغزل والدعابة وغيره من الموضوعات، ويلاحظ تفاوت المستوى الفني في شعره، فهو حين يهجو الموظفين في دواوين الكتابة في صعيد مصر يستخدم لغة سهلة :

انظر بحقـــك في أمر الدواوين فالكل قد غيروا وضع الدواوين

لم يبق شي على ماكنت تعهده إلا تغير من عـــــال الى دون

الكاتبون وليسوا بالكـــرام فما منهم على المال إنسان بمأمون

وقد يهبط أسلوبه الى درجة كبيرة حين يشكو فقره وكثرة عياله الى أحد الوزراء :

اليك نشكو حالنـــــا إننا عائلة في غاية الكثـــرهْ

أحدث المولى الحديث الذي جرى عليهم بالخيط والإبرهْ

صاموا مع الناس ولكنهـم كانوا لمن يبصـــرهم عبره

وأقبل العيد وما عنـــدهم قمح ولا خبز ولافَطـــــره

وهو شعر شعبي متدن أشبه بالاستجداء، فيه من السخرية والدعابة الكثير، ويكشف عن روحية الشعب المصري الميالة للدعابة، ونجد في شعره الهجاء اللاذع، ومديح رجال الدولة الذي يحوي مبالغات كثيرة لكسب المال، أما الجانب الرصين من شعر البوصيري فنظمه في أواخر حياته، ويتضمن الشعر الصوفي والمديح النبوي، وهي (١١) قصيدة، واشهرها ثلاث قصائد هي الهمزية التي تناولت سيرة الرسول الاكرم وتقع في (٤٥٧) بيتا ومطلعها :

كيف ترقى رقيك الانبياء ياسمـــــــاء ماطاولتها سماء

وقصيدة لامية عارض بها بردة كعب بن زهير تقع في (٢٠٤) أبيات وسماها (ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد) ومطلعها :

الى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

والقصيدة الثالثة هي أشهر قصائده على الاطلاق وقد انتشرت انتشارا عظيما، وهي (البردة) التي مطلعها :

أمن تذكر جيـــــران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ويقال ان البوصيري حين نظم القصيدة كان مصابا بالفالج وقرأها على الرسول الاكرم (ص) في منامه، فأعجب بها الرسول والقى بردته على البوصيري فانتبه من نومه فإذا هو معافى، وهي قصة خيالية لانصيب لها من الصحة، ولكن القصيدة أعجبت عشرات الشعراء فعارضوها وشطروها وخمسوها وشرحوها، وقد ترجمت الى لغات كثيرة كالتركية والفارسية والانكليزية والفرنسية والايطالية والالمانية وغيرها، وقد وصف البوصيري في بردته شمائل الرسول وسيرته، وشيء من الوعظ والارشاد ومنها قوله في المطلع :

فما لعينيـــكَ إن قلـتَ اكففا هَمَتا ومَا لِقَلْبِك إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ

أَيَحْسَـــبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكتِم ما بَيْنَ مُنْسَجِـم منهُ ومضطَرِمِ

لولاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ ولا أرقتَ لذكرِ البـــــانِ والعَلم

فكيفَ تُنْكِرُ حُبًّا بعـــدَ ما شَهِدَتْ بهِ عليكَ عــدولُ الدَّمْعِ والسَّقَم

نعمْ سرى طيفُ من أهوى فأرقني والحُبُّ يَعْتَـــرِضُ اللَّذاتِ بالأَلَمِ

وهو مطلع غزلي رقيق أجاد فيه البوصيري، وذكر فيه ايضا الديار النجدية وتشوق الى أهلها، ومن مديحه في النبي قوله :

محمدٌ سيدُ الكونيـــــنِ والثَّقَلَيْنِ والفريقينِ من عُــربٍ ومن عجمِ

نبينَّا الآمرُ النـــــــاهي فلا أحدٌ أبَرَّ في قَوْلِ «لا» مِنْهُ وَلا «نَعَمِ»

هُوَ الحَبيبُ الذي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِكلِّ هَوْلٍ مِنَ الأهوالِ مُقْتَحَـــمِ

دعا إلى اللهِ فالمستمســكونَ بهِ مستمسكونَ بحبلٍ غيرِ منفصمِ

فاقَ النبيينَ في خلْقٍ وفي خُلُقٍ ولمْ يدانـــــوهُ في علمٍ ولا كَرَمِ

وكلهمْ من رسـول اللهِ ملتمسٌ غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ

المحاضرة الحادية عشرة

٣- جمال الدين يحيى بن يوسف الصرصري

شاعر عراقي ولد في بغداد سنة ٥٨٨ هـ ، درس علوم الحديث والفقه واللغة، اشتهر بالمدائح النبوية، وقاوم المغول بعد غزوهم لبغداد حتى قتلوه سنة ٦٥٦هـ ، وقد خلف وراءه الكثير من الشعر التعليمي في الفقه والتاريخ ، ويتميز شعره بالروح الصوفية المميزة ، وكان مطيلا في مدائحه النبوية إذ يبلغ عدد ابيات قصيدته المسماة (الروضة الناضرة في أخلاق محمد المصطفى الباهرة) ٨٥٠ بيتا، ويكمن سبب تفوق الصرصري في المدائح النبوية الى أمرين :

١- افادة الصرصري من شعر المديح النبوي الذي سبقه من حيث المصطلحات وبنية القصيدة .

٢- نضج التوجه الصوفي لدى الصرصري، وقد ظهر ذلك من خلال مشاعره الدينية الصادقة .

وتتكون قصائد الصرصري في المدح النبوي من اجزاء متعددة هي :

أ- المقدمة / وهي متنوعة فقد يبدأ بتسبيح الله تعالى، وذكر نعمه، وجمال صنعه كقوله

سبح لربك في الظـلام الداجـــي واذكره ذكر مواظب لهّـــاج

سبحان من رفع السمـوات العلى سبعا وزان السقف بالأبـــراج

والأرض مهدّها وأرسى فوقها الـ اطواد تمنعها من الإزعـــاج

وقد تكون المقدمة في ذكر البقاع الحجازية، والرحلة اليها والشوق الى ساكنيها كقوله :

رحلنا الى دار النبوة والهدى نروم إمام المتقين محمـدا

فبشرنا نور الربيـــع بأننا سنلقى إمام المتقين محمدا

وقد تكون المقدمة في ذكر الشيب والبكاء على الشباب الذي أفناه باللهو وارتكاب المعاصي، وربما جاءت المقدمة في الحب الالهي، أو الحب المحمدي، وهو يستعين دائما بالمصطلحات الغزلية التي يلبسها الطابع الصوفي، ولذلك تجلت في مقدماته اللوعة والاسى .

ب- مدح النبي (ص) وذكر اخلاقه ومناقبه وهذا الجزء هو الاطول في قصائده المدحية، وتناول فيه جميع جوانب شخصية النبي(ص) ومراحل حياته ومعاجزه ومنزلته عند الله سبحانه وصفاته المعنوية، فهو مثلا حين يتكلم عن خلق الله سبحانه للنبي (ص) يقول :

من فضة بيضاء طينـــــة أحمد من تربة أضحت أعز مكـان
عجنت من التسنيم بالمـاء الذي زادت به شرفا على الأبــدان
غمست بأنهار النعيم فطـــهرت وتعطرت وسمت على الاكوان
وغدت يطاف بها السموات العلى والارض تشريفا من الرحــمن

ت-العنصر الاخير هو التوسل ويأتي في ختام القصيدة، وفيه يمدح النبي(ص) ويدعو له ويتوسل اليه ويعرض حاجاته، فضلا عن دعائه لله :

حصن النجـــاة محمد فيه الوذ واستجــيرُ
فلنعم مولى المؤمنيـــن وإنه نعم النصـــيرُ
جاء الأنام بشـــــرعة فيها هدى لهم ونورُ
وبجاهه نرجو النجـــاة إذا أتى اليوم العسير
وله الشفاعة تنقذ الخـ ـطّاء من نار تفــور

٤-صفي الدين الحلي

ولد في مدينة الحلة سنة ٦٧٧هـ وفيها نشأ وترعرع، وهو من أسرة مرموقة ظل يفتخر بها في شعره، درس علوم العربية، وتعلم الفروسية والصيد في شبابه، وحدثت خصومة بين قبيلته وقبيلة

أخرى أدت الى مقتل خاله، فرثاه بشعره وحث قومه على الثأر، فوقعت معركة كبيرة اشترك فيها الحلي وأبلى فيها بلاء حسنا وذكرها في قصيدته المشهورة :

سَلي الرّماحَ العَوالي عن معالينا واستشهدي البيضَ هل خابَ الرّجا فينا

إنا لقوم أبـــــت أخلاقنا شرفا أن نبتدي بالاذى من ليـــس يؤذينا

بيض صنائعنا، ســـود وقائعنا خضر مرابعنـــــا، حمر مواضيـــنا

وغادر الحلي مدينته وتنقل في دول كثيرة يمدح فيها الملوك والامراء منها ماردين ومدح فيها ملكها المنصور بـ ٢٩ قصيدة، تحوي كل قصيدة ٢٩ بيتا وسماها (درر النحور في مدائح الملك المنصور)، ومدح ولده الملك الصالح بقصائد سماها (الصالحيات)، وتنقل في مدن أخرى كحلب وحماة ودمشق وزار الحجاز للحج، ومكث في القاهرة طويلا والتقى بعلمائها وادبائها كابن نباتة المصري والصفدي، وعاد الى بغداد في أواخر حياته وتوفي فيها سنة ٧٥٠هـ .

وضع الحلي مجموعة كتب أشهرها (العاطل الحالي والمرخص الغالي)، ومعجم (أغلاطي) عن الاخطاء الشائعة، و كتاب (الدر النفيس في أجناس التجنيس) وله رسائل كثيرة، ويعد أشعر شعراء عصره بسبب تميزه على صعيد المعاني والالفاظ، وقد طرق أغراض كثيرة في شعره ،ويعد المديح اكثر الاغراض في شعره، ومنها مثلا مديحه في النبي (ص) كقوله :

بكم يهتدي يانبي الهدى وليٌ الى حبكم ينتســـب

به يكسب الاجر في بعثه ويخلص من هول مايكتسب

وقد أم نحوك مستشفعـا الى الله مما اليـــه نُسب

وله مدائح كثيرة في الملوك والامراء، ويلاحظ في هذه المدائح طول النفس، والمبالغة وعدم الصدق، وطول المقدمات الغزلية حتى تبلغ نصف القصيدة، وعدم الخروج عن المعاني المتوارثة في المديح كالشجاعة والكرم والاقدام .

أما غزله فقد خصص له جانبا كبيرا من قصائد المدح، وهو بين العفيف والماجن، وهو غزل تقليدي يسير على نهج الشعراء العباسيين، فمن غزله العفيف قوله :

ياضعيف الجفون أضعفت قلبا كان قبل الهوى قويا مليا

لاتحارب بناظريك فـــــؤادي فضعيفان يغلبـــان قويا

وهما بيتان فيهما جمال الاسلوب وسلامة الطبع وصدق العاطفة .

أما الوصف فكان الحلي بارعا فيه من حيث تصوير الحدائق والمروج والقصور والطيور وحيوان الصيد ومجالس اللهو والشراب، وأدوات الطرب ، ومن ذلك قوله في وصف الربيع :

ورد الربيع، فمرحبا بـــوروده وبنور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب نسيمــه وأنيق ملبسه ووشي بروده

فصل إذا افتخر الزمـــان فإنه إنسان مقلته وبيت قصيده

يغني المزاج عن العلاج نسيمه باللطف عند هبوبه وركوده

أما مراثيه فكانت في الملوك والامراء والاقارب، وعارض في بعض مراثيه قصائد الشعراء الكبار كمعارضته لابن زيدون، في رثائه لملك حماة الملك المؤيد :

كان الزمان بلقيــاكم يمنينا وحادث الدهر بالتفريق يثنـــينا

فعندما صدقت فيكم أمانينا (أضحى التنائي بديلا عن تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا)

ان شعر صفي الدين الحلي متوزع بين الطبع والتكلف، فالطبع ينافس فيه الشعراء الكبار، والتكلف يجري فيه مجرى شعراء عصره باستخدام اساليب البيان والبديع، ومحاولته التفوق عليهم فكان كثيرا مايجنس ويطابق ويستعير ويكني، ويتلاعب بالحروف اعجاما واهمالا، أما شعره المطبوع ففيه رقة الالفاظ وسهولتها، ووضوح المعاني وصحتها، وهو بحق أديب عصره وناقده .

المحاضرة الثانية عشرة

النثر في العصر الوسيط

وصلت الينا فنون نثرية متنوعة من هذا العصر كالخطب والرسائل بنوعيها: الديواني والاخواني والمقامات والمفاخرات، وأغلب هذه الفنون كانت معروفة في العصور السابقة ولكنها تطورت وزاد الاقبال عليها .

١-الخطابة

هي مقالة تتناول موضوعا معينا وتلقى على جمهور من المستمعين، وتقوم على الارتجال والمنطق السليم، وحسن التصوير وعمومية المناسبة، وقوة التعبير عن المعاني وترتيبها وتزيدها بالادلة كي تكون مقنعة، غير ان خطب العصر الوسيط افتقرت للارتجال بسبب اعتماد الخطباء على خطب السابقين، وكان الخطباء كثيرا مايرجعون الى خطب ابن نباتة الفارقي(٣٧٤هـ)، التي امتازت بالقصر والتسجيع وتناول الموضوعات الدينية .

كانت الخطب تلقى في مناسبات كثيرة كالاستنفار لصد غارة، او رد عدوان، او تلقى على المنابر أيام الجمع والاعياد ومناسبات اخرى، وتعتمد على اثارة العواطف لتقريب الخير وتجنب الشر، والدعوة الى تقوى الله سبحانه، والتحذير من مخالفته، والالتزام بالفروض الدينية، وعدم الاغترار بمباهج الدنيا وعمل الخير لكسب الاخرة .

وتقسم الخطب على نوعين الاول : خطب تلقى شفهيا، بعد ان يرتقي الخطيب المنبر او المنصة او أي مكان مرتفع، ويصاحب الالقاء تحريك اليدين والاشارة والايماء للتأثير في الجمهور، والاخر : خطب مكتوبة، وهي التي يكتبها العلماء في مقدمة كتب التفسير والفقه والاصول، أو خطب زواج الامراء وابناء السلاطين، وتسمى (خطبة الصداق) .

والتزمت خطب هذا العصر بالسجع، وفنون البديع الاخرى كالجناس والطباق والمقابلة والتضمين والاقتباس، وانتقاء الالفاظ والعبارات ، والوحدة بين اجزاء الخطبة، وفضلا عن الخطب الدينية المذكورة سابقا، كانت هناك خطب حربية يلقيها قادة الجيوش والملوك على الجند لاثارة حماستهم وتشجيعهم على القتال، وهي خطب موجزة وسهلة المعاني وبعيدة عن التكلف ومنها مثلا خطبة الخليفة الحاكم بأمر الله في القاهرة يحث فيها الناس على الجهاد ومحاربة التتار :

(أيها الناس، أعلموا ان الامامة فرض من فروض الاسلام، والجهاد محتوم على جميع الانام، ولايقوم علم الجهاد الا باجتماع كلمة العباد، ولا سبيت الحرم الا بانتهاك المحارم، ولاسفكت الدماء الا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أعداء الاسلام حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والاطفال، وسبوا الصبيان والبنات، وايتموهم من الاباء والامهات، وهتكوا حرم الخلافة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الاليم، فارتفعت الاصوات بالبكاء والعويل، وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم طفل بكى فلم يرحم لبكائه، فشمروا ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد، فبادروا عباد الله الى شكر هذه النعمة، واخلصوا نياتكم تنصروا ...) .

٢-الرسائل الديوانية

هي رسائل يكتبها كتاب ديوان الانشاء في المناسبات الرسمية على لسان الخلفاء والسلاطين او الامراء، وبدأت هذه الرسائل منذ عهد النبوة وتطورت في العصر العباسي، وبلغت ذروتها في العصر الوسيط، وارتفعت مكانة كاتب الانشاء حتى وصلت الى مكانة القضاة وقادة الجيوش ووصل بعضهم الى مرتبة الوزارة .

تتناول الرسائل الديوانية موضوعات مثل العهود والتقاليد والمراسيم والمنشورات وكتب الوعيد والانذار وغيرها، وهي تتطلب ثقافة واسعة ومعرفة باللغة والأدب والبلاغة واجادة الخط وقواعد الاملاء، وعادة ماتكون هذه الرسائل كثيرة العناية بفنون البديع وخاصة السجع وغيره من الفنون، ويكثر فيها اقتباس الايات القرآنية وتضمين الاحاديث النبوية والاشعار والامثال واستخدام مصطلحات الفقه والنحو والتفسير .

وكثيرا ماكان يسمى رئيس ديوان الانشاء بكاتب السر، وهو الذي يصيغ رسائل السلاطين وكل مخاطباته، وهو خازن اسرار الدولة ومستشار الحاكم ومدبر أمره ، ويأتي بعده (كاتب الدست) وهو من يعين صاحب الديوان ويوكل اليه بعض الاعمال، ثم يأتي بعده (كاتب الدرج) وهو من اصحاب الخط الجيد، وللرسائل الديوانية اهمية تأريخية لأنها تسجل الاحداث والاحوال السياسية والاجتماعية، وتنطق عن مكنونات الناس وخاصة في الوصايا التي تدعو المسؤولين

الى رعاية الحق واشاعة العدل والرأفة بالرعية، ومن ذلك ماكتبه محيي الدين بن عبد الظاهر في تقليد السلطنة للسلطان المنصور قلاوون على لسان الخليفة (فالواجب أن يعمل بجزئيات أمره وكلياته، وأن لايخرج أحد عن مقدماته . والعدل، فهو الغرس المثمر، والسحاب الممطر، والروض المزهر، وبه تنزل البركات، وتخلف الهبات، وتربو الصدقات، وبه عمارة الارض، وبه تؤدى السنة والفرض، فمن زرع العدل اجتنى الخير ومن أحسن كفي الضرر والضير، والظلم ، فعاقبته وخيمة ومايطول عمر الملك الا بالمعدلة الرحيمة . والرعية ، هم الوديعة عند أولي الامر فلا يختص منهم زيد دون عمرو ...) .

المحاضرة الثالثة عشرة

٣- الرسائل الاخوانية

وهي تتضمن العلاقات الاجتماعية بنوعيها الافقي والعمودي، فعلاقات الكتاب بأسيادهم هي علاقة عمودية، وعلاقات الكتّاب مع بعضهم هي علاقة أفقية، وهي تتناول موضوعات الشكر والشكوى والتقريظ والمدح والمداعبة والعتاب والاعتذار والتهنئة والتعزية وغيرها، وربما كانت هذه الرسائل للتمرين وعرض المواهب، وحينها تكون بلا مناسبة، فقد كتب شهاب الدين الحلبي العديد من هذه الرسائل في كتابه (حسن التوسل الى صناعة الترسل) وسماها (رياضة الخاطر) وكان اغلبها في موضوعات اخوانية نادرة الوقوع، لامتحان قريحة الكاتب وتعليم الكتّاب الناشئين اصول الكتابة .

وقد قلده في ذلك زين الدين عمر بن الوردي في رسالته (منطق الطير) وصف فيها الديك وفيها يقول (فصاح الديك : ها أنا أناديك، أنا قد أذنت، فأقم الصلاة أنت، هذا أوان صف الأقدام، ووضع الجباه، ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله ؟ كم أوقظك، وبانقضاء الاوقات أعظك . فأشفق عليك بصياحي، وأرفرف عليك بجناحي، أقسم لك الوظائف بلا حساب، وأعرف المواقيت بغير الاصطرلاب، أنهاكم عن معصية الله بخروج الوقت، فلا تعصوه، والله يقدر الليل والنهار، علم أن لن تحصوه) وهي رسالة سهلة الاسلوب والعرض، غرضها الموعظة والارشاد .

ويغلب على الرسائل الاخوانية القصر، والاكثار من عبارات المجاملة والتعظيم، والتناسب بين الموضوع والالفاظ، ومن ذلك رسالة اسماعيل الخشاب الى الأديب مرتضى الزبيدي :

(الأستاذ، أدام الله تأييده، وحلّى بوجوده جبين الدهر وجيده، ذو الانفاس الزكية، والاخلاق المرضية، والطلعة السنية، والمشاهد القدسية . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد ..

فقد ورد كتاب السيد المرتضى، والحسيب المجتبى، رافع ألوية العلوم، ومحرر دقائق المنطوق والمفهوم، فإذا هو روض ألفته الغصون، وعروس حسنها عن عين الحواسد مصون، ورأيت من سحره الحلال، وسلساله الزلال، مابهر العقول، وأحجم عن مثله أولو العقول .

إلا أن السيد – لازالت سحائب جوده هاطلة، وأعناق مناظريه من آدابه عاطلة– أغلظ في الخطاب، وجاوز العتاب، ومع كونه ليس له في فضله من مباري، لم يقل لعاً لعثاري، وتوهم أني أبسط لسان الاساءة اليه، وأعاتبه وأنم عليه ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾) .

وهي رسالة رقيقة الاسلوب، لم يبالغ الكاتب في استخدام المحسنات اللفظية، ولم تطغ الالفاظ على المعاني .

٤– المقامات

فن نشأ في العصر العباسي، ويعد بديع الزمان الهمذاني مبدعها الاول، ثم قلده كتاب كثر وابرزهم الحريري والزمخشري، وقد استمر الكتّاب بعد غزو المغول في انشاء المقامات في موضوعات المدح والهجاء والرثاء والوصف، ومن كتاب المقامات نذكر ظهير الدين ابن الكازروني وابن الصيقل الجزري في مقاماته الخمسون وشهاب الدين محمود الحلبي وعمر بن الوردي وابن حجة الحموي وجلال الدين السيوطي .

وقد أنشأ ابن الكازروني مقامة اسماها (مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية) وهي تصف مجازر المغول بعد دخولهم بغداد وتدميرهم المدينة ومنها قوله (... فنهض بي عزمي لاجابة الداعي، وقعد اطفالي ينتحبون اوداعي، وأنا أعد للرحلة زادي، وأملأ بالماء لبعد المسافة

مزادي، فلما اقتعدت راحلتي وانضيتها في قطع مسافتي، وافيتها بادة خالية، وأمة جالية، ودمنة حائلة، ومحنة جاثمة، وقصورا خاوية، وعراصا باكية، قد رحل عنها ساكنها، وبان عنها قاطنها، وتمزقوا في البلاد، ونزلوا بكل واد، وقصورها المشيدة مهدومة، ونعماؤها مسلوبة معدومة، موحشة لفقد قطانها، باكية بلسان الحال عن سكانها، عظام العظام بالية، تسفي عليها الرياح السافية ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ فوقفت أبكيها، وأندب ربوعها ومن كان فيها :

وأندب اطلالها تارة وأبكي على فرقة الظاعنينا

فلو ذهبت مقلة بالبكاء لفرط الغرام لكنا عمينا)

وهي مقامة تتسم بالوضوح والصدق، وقوة التعبير، والاكثار من الصنعة اللفظية، وكانت المقامات في هذا العصر كاشفة لاحوال الناس وطبائعهم كما في مقامات ابن الوردي والسيوطي

٥- المفاخرات

فن رفيع نشأ في العصر العباسي، ومحبب للنفوس، وتجري فيه محاورة بأسلوب جميل بين أثنين أو أكثر يتكلم كل واحد عن نفسه في موضوع معين، متحدثا عن خصائصه ومحاسنه حديثا مؤثرا بهدف الفخر والتغلب على خصمه، وكذلك يذكر عيوب خصمه ويبالغ فيها ويقلب محاسنه عيوبا، وهكذا تتواصل المفاخرة وتتصاعد بين قول ورد واتهام ودفاع، وتنتهي المفاخرة عادة بالصلح بين الطرفين .

وتعتمد المفاخرة على الخيال الخصب وجودة التصوير، واتقان استخدام فنون البيان والبديع، ومن المفاخرات المشهورة في هذا العصر المفاخرة بين السيف والقلم لابن الوردي ومنها (فلما رأى القلم السيف قد احتد، ألان من خطابه ماشتد، وقال : أما الأدب فيؤخذ عني، وأما اللطف فيكتسب مني، فإن لنتَ لنتُ، وإن أحسنتَ أحسنتُ، نحن أهل السمع والطاعة، ولهذا يجمع في الدواة الواحدة منا جماعة، وأما أنتم فأهل الحدة والخلاف، ولهذا لم يجمعوا سيفين في غلاف .

قال السيف : أمكراً ودعوى عفة، (لأمر ما جدع قصير أنفه)، لو كنت كما زعمت ذا أدب، ماقابلت رأس الكاتب بعقدة الذنب، أنا ذو الصيت والصوت، وغراري لسانا مشرفي يرتجل غرائب الموت، أنا ﴿من مارج من نار﴾، والقلم ﴿من صلصال كالفخار﴾، وإذا زعم القلم أنه مثلي، أمرت من يدق رأسه بنعلي) .

ومن المفاخرات المعروفة في هذا العصر نذكر :

- المفاخرة بين السيف والقلم للقلقشندي .
- المفاخرة بين القاهرة ودمشق للبسطامي .
- المفاخرة بين التراب والنار للسيوطي .
- المفاخرة بين الورد والنرجس للحصكفي المارديني .

المحاضرة الرابعة عشرة

اعلام الكتابة الفنية في العصر الوسيط

١- ابن نباتة المصري

هو جمال الدين محمد بن محمد ابن نباتة، ولد في القاهرة سنة ٦٨٦هـ، ودرس الادب واللغة والفقه على شيوخ عصره، برع في الشعر والنثر، وانتقل الى بلاد الشام ليمدح ملك حماة اسماعيل بن علي الايوبي واولاده، وبعد سقوط هذه الدولة انتقل ابن نباتة الى دمشق وعمل كاتبا للانشاء وتفوق فيه، وعرف بطريقته الرمزية في الكتابة التي زادت من الصناعة اللفظية، ثم عاد الى مصر وقد جاوز السبعين من عمره ومدح السلطان الناصر حسن، توفي في القاهرة سنة ٧٦٨هـ .

له اثار عديدة منها ديوان خطب، وديوان شعر، وكتاب سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، رسالة المفاخرة بين السيف والقلم، ومطلع الفوائد ومجمع الفرائد.

جارى ابن نباتة ذوق عصره في الكتابة وهو ذوق مرتبط بالصياغة اللفظية المتكلفة المليئة بالسجع والجناس والطباق، إذ تأثر بالقاضي الفاضل ونهج نهجه وجمع مختارات من رسائله في كتاب (الفاضل من انشاء الفاضل)، ولكنه لم يلتزم بطريقته التزاما تاما بل مال الى التقليل من البديع والاتجاه الى الاسلوب المطلق، ونثره يتأرجح بين التزام الصناعة اللفظية التي ترهق الفكر وتتعب الذهب وبين التخفف من هذه الصناعة والتعقيد اللفظي كقوله على لسان القلم في رسالته (المفاخرة بين السيف والقلم) : (أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وأنا المعمر، وأنت المدمر، وأنت المقلد وأنا صاحب التقليد، وأنت العابث وأنا المجود ومنن أولى من القلم بالتجويد، فما أقبح مشبهك، وماأشنع يوما ترى فيه العيون وجهك، أعلى مثلي يشق القول، ويرفع الصوت والصول، وأنا ذو اللفظ المكين، وأنت ممن يدخل تحت قوله تعالى ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ .

ان الصناعة اللفظية في هذه الرسالة مقبولة وغير متكلفة وجاء السجع فيها متوازنا ولم يؤثر في المعنى .

٢- القلقشندي

هو ابو العباس احمد بن علي بن أحمد في مدينة قلقشندة سنة ٧٥٦هـ، وتعلم الفقه واللغة والادب وعلوم اخرى، وانتقل الى الاسكندرية وطلب العالم فيها، ونال

اجازة بالفتيا والتدريس على المذهب الشافعي، ثم عمل في ديوان الانشاء بالقاهرة واشتغل بالتأليف حتى وفاته سنة ٨٢١هـ، مخلفا مؤلفات ضخمة أشهرها موسوعته الكبيرة (صبح الاعشى في صناعة الانشا) وهي في (١٤) مجلدا، وكتاب نهاية الارب في معرفة انساب العرب، ومقامة (الكواكب الدرية في المناقب البدرية) وغيرها .

ويعد كتابه صبح الاعشى مرجعا للكتابة العربية وأصولها وطرقها وتطورها بالاعتماد على عشرات المصادر التاريخية والجغرافية، وقد تناول فيه ثلاثين نوعا من انواع المكاتبات الصادرة عن دواوين الانشاء.

ويتميز نثره باعتماد الطبع دون الصنعة، وقد انعكست ثقافته الواسعة في نثره وخصوصا في عرض مادة صبح الاعشى بطريقة سهلة ومفهومة بعيدا عن التعقيد، ويتميز بأسلوبه بالاشراق واللغة الواضحة السليمة، ومن نثره قوله في وصف الرمح (الرمح هو ألة الطعن، والرماح ضربان، أحدهما متخذ من القنا، وهو قضيب مسدود من الداخل، ينبت ببلاد الهند يقال للواحدة منه : قناة، ويقال لمفاصلها : أنابيب، ولعقدها : كعوب؛ فإن كان قد نشأ في نباته مستقيما بحيث لايحتاج الى تثقيف قيل له: الصعدة – بفتح الصاد وسكون العين المهملتين– وإن احتاج الى تقويم مقوم قيل له : مثقف . ويوصف القنا : بالخطي – بفتح الخاء المعجمة – نسبة الى الخط، وهي بلدة بالبحرين تجلب اليها الرماح من الهند، وتنقل الى بلاد العرب) .

٣–عبد القادر البغدادي

هو عبد القادر بن عمر بن بايزيد البغدادي، ولد في بغداد سنة ١٠٣٠هـ ودرس في مدارسها واخذ عن علمائها، واتقن العربية والتركية والفارسية، ورحل الى دمشق

واتصل بأحد وجهائها فأكرمه، وافاد من علمائها، ثم ارتحل الى القاهرة ونهل من مجالس علمائها وادبائها، وقد امتلك ناصية علوم كثيرة واتضح ذلك في اعظم مؤلفاته (خزانة الأدب) ، ثم حط البغدادي رحاله في القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية ومحط العلماء والادباء، وتنقل بين المدن حتى توفي في القاهرة سنة ١٠٩٣هـ .

ترك البغدادي مؤلفات كثيرة في اللغة والتاريخ والأدب منها شرح شواهد المغني لابن هشام، شرح شواهد الشافية للرضي الاسترابادي، ومشكلات اللغات، وخزانة الادب ولب لباب لسان العرب وهو أهم مؤلفاته وهو شرح شواهد كتاب الكافية لابن الحاجب، ويعد موسوعة في علوم العربية وأدابها وامثالها ولهجات العرب واخبارهم وايامهم وشرح لعشرات القصائد وهو مليء بالنصوص النادرة، واعتمد على عشرات المصادر الادبية والنحوية .

انعكست في نثره فطنته وذكاؤه وسعة علومه، فكان ماهرا في نقد النصوص ومقارنتها ودقة النقل عن المصادر وتحري الامانة والتنبيه على الاخطاء التي وقع فيها العلماء، وهو أعلم المتأخرين باللغة والشعر والنثر والمقامات وأيام العرب، وكان أسلوبه جميلا غير ممل بسبب الاستطراد بين الرأي الرصين والخبر الطريف والنكتة اللغوية والبلاغية والتعريج على الفقه وقرع الحجة بالحجة، وكان طريقته في الكتابة سهلة وغير معقدة، وغايته ايصال العلم والمعرفة الى المتلقي بأيسر الطرق .

ومن نثره قوله في مقدمة خزانة الادب موضحا منهج الكتاب (اجتهدنا في تخريج أبيات الشرح، وفحصنا عن قائليها، حتى عزونا كل بيت الى قائله – ان امكننا ذلك – ونسبناه الى قبيلته أوفصيلته، وميزنا الاسلامي عن الجاهلي، والصحابي عن التابعي، وهلم جرا، وضممنا الى البيت مايتوقف عليه معناه؛ وإن كان من قطعة نادرة أو قصيدة عزيزة، أوردناها كاملة، وشرحنا غريبها أو مشكلها،

وأوردنا سببها ومنشأها؛ كل ذلك بالضبط والتقييد، ليعم النفع، ويؤمن التصحيف والتحريف، وليوثق بالشاهد لمعرفة قائله، ويدفع احتمال ضعفه) .

المصادر :

١- الادب العربي في العصر الوسيط من زوال الدولة العباسية حتى بدء النهضة الحديثة/ الدكتور ناظم رشيد شيخو .

٢- الادب في العصر المملوكي / د.محمد زغلول سلام .

٣- تاريخ الادب العربي في العراق / عباس العزاوي .